مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(أعمال الرسل ٩: ٣٢-٤٣)

في تلكَ الأيامِ فيما كان بُطرُسُ يطوفُ في جميع الأماكِنِ نَزَلَ أيضاً إلى القدِّيسينَ الساكنينَ في لُدَّة* فوجدَ هناكَ إنساناً اسمُه أينياسَ مُضطَجِعاً على سريرٍ منذُ ثماني سنينَ وهو مُخلَّع* فقال له بطرُسُ يا أينياسَ يشفِيكَ يسوعُ المسيحُ قُم وافترِشْ لنفسِك. فقام للوقت* ورآهُ جميعُ الساكِنينَ في لُدَّة وسارون فرَجعوا إلى الرب* وكانت في يافا تِلميذَةٌ اسمُها طابيتا الذي تفسيرُهُ ظَبْية. وكانت هذه مُمتلِئةً أعمالاً صالِحةً وصَدقاتٍ كانت تعمَلُها* فحدَثَ في تِلك الأيامِ أنَّها مَرِضَت وماتَت. فَغَسَلوها ووضَعُوها في العِلِّيَّة* وإذ كانت لُدَّةُ بقُربِ يافا وسَمعَ التلاميذُ أنَّ بطرُسَ فيها أرسلوا إليهِ رجُلَيْن يسألانِهِ أنْ لا يُبطِئَ عن القدوم إليهم* فقامَ بطرُسُ وأتى معهما. فلمَّا وَصَلَ صَعِدوا بهِ إلى العِلِّيَّة ووقفَ لديهِ جميعُ الأرامِلِ

شفاء المخلّع

في مطلع الإنجيل الذي يُتلى علينا في هذا اليوم، يصعد الرب يسوع إلى هيكل أورشليم، والمناسبة لم يشر إليها الإنجيلي ربما لكونها أحد الأعياد اليهودية التي ما امتدت إلى المسيحية. عند «باب الغنم»، إحدى بوابات الهيكل المخصصة لإدخال الذبائح المقدَّمة كتضحيات، بركة ماء تجمّع حولها «جمهور كثير من المرضى من عميان وعرج ويابسي الأعضاء» يأملون شفاءً عجائبياً من أمراضهم. في الصورة حتى الآن إشارات رمزية إلى العالقين في سطحيات انتمائهم الديني (عند باب الهيكل) الذين يرجون الخلاص عبر الشرائع السماوية ولا قدرة لهم على إتمام هذه الشرائع (جمهور المرضى). هؤلاء هم الذين ما استناروا بالإيمان الحقيقي (العميان)، الذين يعرفون درب خلاصهم ولا قدرة لهم على سلوكها (العرج) والنفوس اليابسة المفتقدة إلى المحبة والرجاء (يابسي الأعضاء).

أحياناً، ودون مواعيد محددة، كانت مياه البركة تتحرك بفعل ملاك الرب فتمسي شافية. القديس يوحنا الذهبي الفم يرى هنا إشارة من الله إلى قوة المعمودية الجديدة، بالماء والروح، التي بانحدار الروح القدس تمسي شافية غافرة ومحيية، وتجدد المعتمدين بالنعمة والفضيلة. في صورة الملاك المعطي الماء قوة شفاء الجسد، إشارة مسبقة إلى المسيح يسوع، سيد الملائكة و«رسول الرأي العظيم»، الحاضر في أسرار كنيسته بدءاً من سر العماد، ليعطي الذين يلتمسونه ويلتزمونه لا شفاءً وحسب بل انتصاراً على الموت ومفاعيله. ومنذ بداياتها الأولى، رأت أجيال المسيحيين في المعجزة التي نحن بصددها، والحاصلة لا بلمس الماء بل بكلمة السيد، صورة عن سر التوبة.

العدد ٢٠٠٩/١٩

الأحد ١٠ أيار

أحد المخلّع

تذكار القديس الرسول

سمعان الغيور

اللحن الثالث

إنجيل السَحَر الخامس

يقع نظر السيد المبارك على ذاك المقعد منذ «ثمان وثلاثين سنةً» فيسأله إن كان يريد أن يبرأ. لعلّه كان طبيعياً أن يثور المريض إزاء هذا السؤال، وله في معاناته وأساه كل هذا الزمان، وفي كل مرة يسبقه إلى الشفاء آخر. إلاّ أنه بدلاً من ذلك سكب أمام السيد ضعفه وحسرته باتضاع ودون تذمّر. التائب يأتي إلى السيد

يبكينَ ويُرينَهُ أقمصةً وثياباً كانت تَصنَعُها ظَبيَةُ معَهنَّ* فأخرجَ بُطرُسُ الجميعَ خارجاً وجثا على رُكبَتَيهِ وصلَّى. ثمَّ التفتَ إلى الجسدِ وقال يا طابيتا قومي. ففتَحت عينَيها. ولما أبصَرَتْ بُطرُسَ جَلَست* فناوَلها يَدَهُ وأنهَضَها. ثم دعا القدِّيسينَ والأرامِلَ وأقامها لديهم حيَّةً* فشاع هذا الخبرُ في يافا كلِّها. فآمن كثيرون بالرب.

الإنجيل

(يوحنا ٥: ١–١٥)

في ذلك الزمان صعِد يسوعُ إلى أورُشليم* وإنَّ في أورُشليم عند بابِ الغنَمِ بِرْكةً تُسمَّى بالعبرانية بَيْتَ حِسدا لها خمسةُ أرْوِقة* كان مضطجعاً فيها جمهورٌ كثيرٌ منَ المرضى من عميانٍ وعُرْجٍ ويابسي الأعضاءِ ينتظرون تحريكَ الماءِ* لأنَّ ملاكاً كان ينزل أحياناً في البِرْكَةِ ويحرّكُ الماءَ. والذي كان ينزلُ أولاً من بعدِ تحريكِ الماءِ كان يُبرأُ من أيّ مرضٍ اعتراهُ* وكان هناك إنسانٌ بهِ مرضٌ منذ ثمانٍ وثلاثين سنةً* هذا إذ رآهُ يسوعُ مُلقًى وعلِم أنَّ لهُ زماناً كثيراً قال له أتريدُ أن تَبْرأَ* فأجابهُ المريضُ يا سيّدُ ليس لي إنسانٌ متى حُرّكَ الماءُ يُلقيني في منسحقاً، معترفاً بضعفه، عينه على ما فيه من أسقام وعلل لا على ما للغير. هذا ينال من السيد، للتو، الشفاء التام. هكذا نحيا، في كنيستنا، سر التوبة وهكذا به نشفى.

قال الرب للمخلَّع «قم احمل سريرك وامش»، فقام الرجل للوقت من إعاقته وحمل سريره (رمز مرضه)، ومشى. كلمة واحدة آمرة ممن له السلطان، فشفاء علني ناجز كلّي. ثمة ما يسترعي الإنتباه هنا، وهو أن السيد كان يقرن آياته دائماً بدلائل التأكيد، ليُعتلَن مجد الله وليتثبَّت اليقين. فهناك مثلاً بعد تكثير الخبزات يوجد سلال الفضلات التي جمعها الرسل، بعد شفاء الأبرص هناك الأمر بأن يري نفسه للكهنة، وبعد تحويل الماء إلى خمر في عرس قانا الجليل لدى الخدّام الأمر بأن يُقدّموا الخمر إلى رئيس المتكأ ليتذوّقها، وبعد إقامة إبنة رئيس المجمع من الموت هناك الأمر بأن تُعطى لتأكل. ولكل مَن صار فيهم نور المسيح، يقول الرب «هكذا فليضئ نوركم قدام الناس فيروا أعمالكم الصالحة ويمجّدوا أباكم الذي في السموات». هنا، وبالعودة إلى كلام السيد الشافي، نرى لا أمراً واحداً بل ثلاثة: قم، أي انفض عنك ثقل الخطيئة المتراكم وحرّك كيانك الراكد حتى الآن. إحمل سريرك، أي احمل رمز مرضك لكي لا تنسى ضعفاتك فتعود وترزح تحتها من جديد. إمشِ، أي إمضِ قُدُماً إلى الله مخلّصك، اترك أرض أمراضك وخطاياك إلى الأرض التي افتتحها لك الرب، أرض الفضيلة والإيمان والإرتقاء فيهما حتى الإمتلاء الكلي من المسيح. هذه المعادلة الثلاثية هي قوائم التوبة الحقيقية وأساساتها.

هذا بالإضافة إلى طاعة الرجل المقعد، الذي وإن كان لا يعرف من هو محدّثه، آمن بكلمته أكثر من عجيبة تحريك المياه الحسية المنظورة. لم يقل في نفسه كيف يدّعي هذا انه يصنع بكلمة أكثر من الملاك النازل من السماء، بل فقط أطاع. هذا هو القلب الخاشع المتواضع الذي لا يرذله الله، كما يقول مزمور التوبة. أكثر من ذلك، فعندما واجه اليهود هذا المسكين بتشددهم فيما يختص بالسبت، الآتي من الحسد لا من الغيرة على ناموس الله وإلا لكانت غلبتهم المحبة، أجابهم قائلاً «الذي أبرأني هو قال لي إحمل سريرك وامشِ». بمعنى آخر، وكأن هذا الرجل أيقَن ولو في عمق وجدانه، كم أن المحبة أعظم من الناموس، ومن هو ذو السلطان الحقيقي. تجدر الإشارة هنا إلى أن المقعد سابقاً لم يتخلَّ عن الناموس الإلهي إثر شفائه، وإن واجه اليهود بهذه الكلمات، بدليل أنه دخل إلى الهيكل للتو ليؤدي واجبه الديني.

«ها قد عوفيت، فلا تعُد تخطئ لئلا يصيبك أشر». لم يقل السيد أن مرض الرجل أتاه عقاباً على خطيئة ما، ولكن «الآن وقد طُهرت من خطيئتك، الآن وقد استأهلت أن تقف في وسط الكنيسة مع جماعة المؤمنين، إحترس من انتقام الشرير إن استفردك وأنت تخطئ». يعلّمنا آباؤنا القديسون أن الشرير متى انهزم بالتوبة، سوف يبقى يتحيّن الفرصة للثأر لهزيمته، وتوبة الخاطئ هي أكثر ما يذكّره بمذلته الكبرى يوم ذبيحة الفداء على الصليب. لذا فإن الشرير لن يترك التائب بسلام إلاّ ويحاول الإيقاع به من جديد.

البِرْكة بل بينما أكونُ آتياً ينزِلُ قبلي آخَرُ* فقال لهُ يسوعُ قُمِ احمِلْ سريرَكَ وامشِ* فللوقت بَرِئَ الرجلُ وحمل سريرَهُ ومشى. وكان في ذلك اليوم سبتٌ* فقال اليهود للذي شُفي إنَّهُ سبتٌ فلا يَحِلُّ لك أن تَحمِلَ السريرَ* فأجابهم إنَّ الذي أَبرأَني هو قال لي إحمِلْ سريرَكَ وامشِ* فسألوهُ مَن هو الإنسانُ الذي قال لكَ احمِلْ سريرَك وامشِ* أمَّا الذي شُفي فلم يكن يعلمُ مَن هو. لأنَّ يسوعَ اعتزَلَ إذ كان في الموضِعِ جمعٌ* وبعدَ ذلك وجده يسوعُ في الهيكل فقال لهُ ها قد عُوفيتَ فلا تَعُدْ تُخطِئُ لئلاَّ يُصيبَكَ أشرٌّ* فذهبَ ذلك الإنسانُ وأخبر اليهودَ أنَّ يسوعَ هو الذي أبرأهُ.

تأمل

يا للعجب كيف نرى المرضى يعتنون بمداواة أمراضهم ويقصدون الأطباء ويسافرون إلى البلاد البعيدة وينفقون الأموال الجزيلة وهم لا يعلمون هل تنجح مداواتهم أم لا. وأنت ترى الطبيب الماهر المستغني عن اتخاذ الآلات والعقاقير وطلب الأجرة قائلاً للعازر اخرج من القبر وللمخلّع احمل سريرك واذهب وللميت المحمول أيها الشاب قم وللخاطئة مغفورةٌ لكِ خطاياكِ وأمثال ذلك كثيرةٌ

الإله – الإنسان

«وإذ وُجِدَ في الهيئةِ كإنسانٍ وضعَ نفسه وأطاع حتى الموت موت الصليبِ. لذلك رَفَّعَهُ اللهُ أيضاً وأعطاهُ اسماً فوق كُلِّ اسمٍ. لكي تجثو باسم يسوعَ كُلُّ رُكبَةٍ» (فيليبي ٢: ٨–١٠).

عند قراءة المقالات والكتب اللاهوتية، غالباً ما ترد عبارة الإله – الإنسان أو الإله المتجسد، في إشارة إلى الرب يسوع المسيح. فقد اجتمعت في شخص يسوع المسيح الألوهة كاملة غير منقوصة والإنسانية كاملة غير منقوصة، دون أن تبتلع الواحدة الأخرى ودون أن تمتزجا. ألم نرَ يسوع إلهاً كاملاً وإنساناً كاملاً على باب قبر لعازر؟ بكى يسوعُ لعازرَ وارتعش كإنسان، ولكنه أقامه من الأموات كإله. إنه الإله الكامل الذي تنازل وصار بشراً دون أن يتنازل عن ألوهته. لذلك فإن اللاهوتيين عندما يستعملون عبارة الإله – الإنسان يشدِّدون على ان أعمال ربنا ومخلصنا وإلهنا يسوع المسيح هي أعمال الآب والروح القدس بالإتفاق والإنسجام معه. لا شيء يقوم به الرب أو يقوله أو يرغب به هو مجرد صدفة. كل شيء هو جزء من المخطط الإلهي السرّي لأجل خلاص البشريَّة. ولعل أيقونة ضيافة إبراهيم للقديس أندريه روبليف الروسي، المسمّاة أيقونة الثالوث الأقدس، هي أفضل تعبير عن عمل أركان الثالوث الواحد. حتى ان كاتب الأيقونة رسم وجوه الملائكة الثلاثة متطابقة بالكلية وذلك للدلالة على وحدة جوهر الثالوث وعمله وإرادته ومشيئته.

يعلّمنا الرب الإتضاع والطاعة. لكن البعض يقول انه ليس من الطبيعي للإنسان أن يكون متواضعاً. فمجتمعنا اليوم يشجع مَن يدافع عن حقوقه ولو بطريقة عدائية ، ويقولون: «إذا لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب». لكن وصايا الإله ـ الإنسان الموجودة في العظة على الجبل (متى ٥–٦–٧) تُبارك وتمدح المتواضع والوديع وصانع السلام والنقيّ القلب، وتعِدُ أمثال هؤلاء بملكوت السموات. قد يسأل البعض كيف نقوم بهذه ونحافظ في الوقت عينه على شيء من احترام الذات واحترام الناس لنا؟ هذا سؤال لا يساعد في عملية خلاصنا. فالإله – الإنسان قال انه إذا أردنا أن نربح أنفسنا يجب أن نخسرها أولاً، لأن مَن يخسر نفسه سوف يخلّصها في الأخير. كيف يصير هذا ممكناً؟

الجواب هو أيضاً لدى الإله – الإنسان الذي جسّده فعلاً لا قولاً فحسب. فهو الإله، ابن الله، الذي «وضع نفسه وأطاع حتى الموت». لقد أيقن الرسول بولس ان الإتضاع هو مفتاح الخلاص وأرادنا أن نشاركه هذا الوعي. التواضع هو من أسس الحياة النسكية والروحية ولكنه ليس للرهبان والراهبات فقط. التواضع هو أساس الحياة المسيحية، لذا وضعت الكنيسة مَثَل الفريسي والعشار في بداية فترة التهيئة للصوم لتعلّمنا ان التواضع هو أول الفضائل. والصوم الكبير ينتهي إلى الأسبوع العظيم متوّجاً بآلام الرب على الصليب وموته ودفنه وقيامته. فالإله – الإنسان الذي نكرِّم ونمجّد علّمنا بذاته أن ما قد يظنه البعض مستحيلاً هو ممكن. علّمنا ان الإستسلام الكلّي الإرادي والطوعي لله وتقدمة الذات للخالق له نتائج مذهلة. فهو «أطاع حتى الموت،

وهو طالبٌ منك وراغبٌ في مداواتك وأنت تنعطف عنه هارباً وتتوانى متكاسلاً. فإن كنت يا هذا واقفاً فاحذر من السقوط. هناك أناسٌ رفضوا الأموال والمنازل الرفيعة وفارقوا الأهل والأصدقاء وسكنوا البراري وكهوف الجبال وعذبوا أجسادهم بكثرة الصوم والصلاة واحتمال حرّ الصيف وبرد الشتاء وهجروا جميع اللذات والمناظر الجميلة وبلغوا غاية الفضيلة حتى كادوا يصلون إلى السماء. ولكنهم لما غفلوا يسيراً وتوانوا في مقاصدهم عثروا في مصايد العدو وسقطوا في حفرة الخطيئة. وأناسٌ غيرهم نهضوا من نقائصهم وفارقوا ما كانوا يألفونه من الغنى واللهو والسكر والرقص واللعب وبقية المعاصي وتمسكوا بأذيال التقوى فرفعتهم من أعماق الرذائل وبلغت بهم إلى التشبه بالسماويين. وحينئذٍ سدُّوا أفواه الذين يزعمون ان الساقطين لا ينهضون. ولذلك أطلب من المؤمنين أن يحفظوا أنفسهم من السقوط ويشيدوا أسوار مدينتهم ويتجهزوا ويتيقظوا للدفاع ضد عدوهم. ومن الواثقين بأنفسهم أن يتحذَّروا ويتيقَّظوا ولا يغفلوا عن تدارك أنفسهم مخافة أن يسقطوا. فإن الساقط إلى الأرض من أعالي الفضيلة يعسر عليه الرجوع إلى محلّه.

القديس يوحنا الذهبي الفم

موت الصليب»، فكانت النتيجة ان «رفعه الله أيضاً وأعطاه إسماً فوق كل إسم، لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة».

مخطط الثالوث الأقدس هو ليس فقط الخلاص بل وأيضاً الإتحاد مع الخليقة، مع الجنس البشري. قد يفهم البعض الخلاص حرفياً، أي الخلاص من شيء ما، من الخطيئة فقط. لكن ماذا بعد ذلك؟ الإتحاد مع الآب والإبن والروح القدس، نُتبنَّى كإخوة للإله ـ الإنسان لكي لا نحيا فقط إلى الأبد، بل نعيش في شركة دائمة مع الثالوث، أن تتحد الخليقة بغير المخلوق. إلاّ ان الشرط الأساسي للحصول على هذه الشركة هو إستسلام الإرادة البشرية الكامل غير المشروط للإرادة الإلهية.

علينا أن نتمثّل بالرب يسوع. قبل الصليب صلّى «إن أمكنَ فلتَعْبُرْ عني هذه الكأسُ. ولكن ليس كما أريدُ أنا بل كما تريدُ أنتَ» (متى ٢٦: ٣٩). خضوعه كإنسان لإرادة الآب كانت منذ صغره. فلما عبّرت مريم عن قلقها مع يوسف عليه بعدما أضاعاه في أورشليم ووجداه يناقش الشيوخ في الهيكل قال لهما: «لماذا كنتما تطلباننني ألم تعلما أنَّه ينبغي أن أكونَ في ما لأبي» (لو ٢: ٤٩). من حينها وعى ان مهمته أهم من أي عمل يقوم به الإنسان، أن يعيد الإنسان إلى أحضان الآب، إلى الشركة الأبوية في الملكوت. وهذا لم يتم إلا بالإتضاع والطاعة. ونحن كلنا بشر لكننا مُنحنا ختم موهبة الروح القدس عندما تعمَّدنا ومُسحنا بالميرون المقدس. صار روح الله فينا. صرنا على صورة الإله – الإنسان المتواضع حتى الموت، موت الصليب. لذا علينا أن نعمل بدعوتنا لكي يرفعنا الله ونعود إلى الشركة الإلهية التي فقدناها قديماً في الملكوت. علينا أن نطيع مَثَل المخلّع الذي سمعنا عنه في إنجيل اليوم، فلا نتحجج بضعفات لكي لا نبقى بعيدين عن الرب وملكوته.

في سر الشكر

إن من يشكر الواهب يحثه على عطايا أعظم. من لا يشكر على الصغيرات فهو في شكره على الكبيرات كاذب وظالم. من يمرض ويعرف داءه عليه أن يفتش عن الإستشفاء، ومن يعترف بألمه يقترب من الشفاء ويبلغه بسهولة. القلب القاسي تزداد فيه الأوجاع، والسقيم الذي يقاوم الطبيب يزداد ألمه. لا توجد خطيئة بدون مغفرة إلاّ التي بلا توبة، ولا عطيّة بدون مزيد إلاّ التي بلا شكر. حصة الجاهل صغيرة في عينيه.

تذكّر أولئك الذين يمتازون عنك في الفضيلة لترى كم أنت أقل منهم. تذكّر دوماً الشدائد الصعبة التي يقاسيها أولئك أثناء الضيق والشقاء حتى تؤدي الشكر اللائق لله على ضيقاتك الصغيرة والزهيدة وتتمكن من الصبر عليها بفرح...

تذكّر سقوط الأقوياء تتّضع بفضائلك. تذكّر الزلاّت القاسية التي سقط فيها كثيرون قديماً واستحقوا سمو الكرامة بعدما تابوا تكتسب شجاعة في توبتك. اضطهد نفسك يُطرد العدو بعيداً عنك. اجلب السلام لنفسك تستقبلك السماء والأرض بالسلام. اجتهد أن تدخل مخدعك السري ترَ المخدع السماوي أيضاً، لأن هذا وذلك واحد، وبدخولك أحدهما ترى الإثنين معاً. إنَّ سُلَّمَ ذلك الملكوت كائن في داخلك أي مخبّأ في نفسك. تأمَّل خطيئتك بعمق تجد هناك مصاعد تستطيع الإرتقاء بها.